شيشيرون (١٠٦ - ٤٣ ق . م)

(من كتاب تاريخ التربية لمؤلفه الاستاذ مصطفى أفندى امين)

شيشيرون

شيشرون هو فيلسوف من أكبر الفلاسفة المعروفين ، وخطيب من أبلغ الخطباء المفوهين ، امتزجت فيه التربيتان الرومية والاغريقية ، وتضافرتا على تكوين أخلاقه وتثقيف مداركه ، وغذته كلتاهما بأرقى المعارف والآداب المعروفة فى عصره .

منشؤه ومرباه

ولد سنة ١٠٦ ق . م من أبوين عريقين فى المجد ، وقضى دور طفولته فى أرقى المدارس الرومية ، حيث قام بتربيته وتهذيبه رجال من أكفى المربين الذين أنجبتهم رومة فى ذلك الحين . وقد كانت العادة المألوفة بين الطبقات العالية فى رومة أن يرحل الناشئان والشبان المتعلمون إلى الممالك الأجنبية ، لاستكمال علومهم ومعارفهم واستتمام مابدءوه من أنواع التثقيف والتهذيب فجرى شيشيرون على هذه السنة ، ورحل إلى أثينا ومصر وآسيا الصغرى وجهات أخرى كثيرة ، وأخذ عن أكبر رجال العلم والأدب الأثينيين ، وتخرج فى الشريعة والفلسفة والآداب ، وتوفر على دراسة البيان فغذته ونبغ فيه أعظم نبوغ درسه فى رودس مع أبولونيوس

أحد البلغاء المشهورين ، وأقدر الخطباء المفلقين في زمنه .

سأله أبو لونيسوس هذا ذات مرة أن يخطب الناس باللغة الاغريقية فى موضوع اقترحه عليه ، فلبي مسرعاً ، وخطب جمهوراً كبيراً ، وما كاد يتم خطبته حتى ضج الناس ضجيج الاستحسان ، وأقبلوا عليه يهنئونه ويطرون بلاغته وحسن بيانه . أما أبو لونيسوس فقد جلله الهم والاكتئاب ، وبعد سكتة طويلة عميقة ، رفع بصره الى شيشيرون وقال بلهجة الأسف المحزون « أهنيك وأطرى بلاغتك ياشيشيرون ولكنى أرثي لهذه البلاد وأندب حظها المنكود ، فانى أرى البيان وهو البقية من آثار مجدها السابق ، سيذهب عنها وينتقل بك إلى حاضرة الروم . »

ولما عاد شيشيرون إلى رومة اشتغل بالمحاماة ، وكان اكثر عمله خاصاً بالدفاع عن الأشراف والنبلاء وذوى المناصب الرفيعة المتهمين برشوة أو خيانة أو غصب أو غير ذلك من الجرائم وكبائر الذنوب . وقد ألقى فى هذه المواقف أبلغ ما أثر عنه من الخطب التى سار بذكرها الركبان ، ثم أخذ يتدرج بعد ذلك فى مراتب الدولة ، حتى بلغ منصب القنصلية أسمى المناصب السياسية في البلاد الرومية فى ذلك الحين . وفى هذا المنصب الرفيع الشأن أظهر من الكفاية والاخلاص والأمانة وحب الوطن ما ملك به قلوب الناس حتى سموه جميعاً أبا الشعب .

عاش شيشيرون فى عصر كله فساد واضطراب وخيانة وجور ، ولكنه عاش حياته مخلصاً فى وطنيته ، عادلا فى سياسته ، أميناً فى سره وجهره ، حراً فى عمله وتفكيره . أما عظمته العقلية فقد قال فيها فورسيث « إنها عظمة

أزرت بعظمة كل إنسان عاش في عصره ؟ .

فهم كانت له معايب معدودة ، وكفى المرء نبلا أن تعد معايبه . كان كثير الزهو بعلمه ، كثير التردد في أمره ، ضعيف العزم ، تنوزه الشجاعة والاقدام ، ولكنه بجانب هذا كان طاهراً نقياً صريحاً في عصر كله خبث ودهاء ، وكان قلبه عامراً بحب الوطن ، على حين كان الناس يتسابقون إلى خيانة الأوطان .

مقتله

في أيام أنطنيوس عم الفساد واشتدت الفوضى ، فقام شيشيرون وألقى خطبه الشهيرة التي عاب فيها سياسة البلاد وعرض فيها بزوج أنطنيوس ونبأ بمصير الدولة ، وسيرها في طريق الاضمحلال والخراب . ولما أحس أن أنطنيوس حقد عليه وقضى باعدامه ، حاول الفرار من البلاد الايطالية ولكن الجواسيس تعقبوه فأدركوه وقتلوه ، ثم حملوا رأسه ويديه إلى رومة ، وأهدوها الى أنطنيوس ، ففرح بها وأرسلها من فوره الى زوجه فولفيا وكانت حاقدة عليه .

قال فورسيث : « أخذت فولفيا الرأس النبيل وألقته في حجرها ، ثم أخذت تخاطبه مخاطبة الشامت الغاضب ، وترميه بقوارص الكلم ، وتكيل له ألفاظ الشتم واللعن ، كأنما تخاطب حياً ، ثم أدخلت يدها في فيه ، وأخرجت لسانه الذي طالما عرض بجرائمها وأعمالها الشائنة ، وانتزعت دبوساً من شعرها وأخذت تشوكه وتخزه وهي في أشد حالات الثوران النسوي ، ولما أحست أنها شفت نفسها وأبردت غلتها . ألقت به إلى الأرض فأخذه

الحراس وسمروه هو واليدين فى المكان الذى طالما خطب فيه الجماهير ، ونال فيه الذكر الرفيع والصيت البعيد . »

آراؤه ومذاهبه فى التربية

لم يشتغل شيشيرون بصناعة التعليم جميع حياته ولكنه نال مكانه فى تاريخ التربية بفضل مابثه فى رسائله ومؤلفاته من الآراء الحكيمة والأفكار السديدة الخاصة بالتربية والتعليم . ولقد كانت مذاهبه فى عقوبة الأطفال من الحزم والسداد بحيث يدهش لها الانسان ، ويعجب كيف خطرت لمثله فى ذلك الزمن السحيق الذي عاش فيه ، وإلى القارىء مجمل آرائه فى موضوع العقوبات . —

(١) لا ينبغى للمربى أن يلجأ إلى العقوبة البدنية إلا إذا لم تنجع فى الطفل أية وسيلة أخرى من وسائل التأديب .

(٢) يجب ألا تكون العقوبة بحيث تذل نفس الطفل أو تمس كرامته

(٣) لاينبغى للمعلم وهو فى ثورة الغضب أن يعاقب تلميذه ، وإنما عليه أن يؤجل العقوبة حتى تسكن ثائرته ، وحتى تتاح له وللتلميذ فرصة التفكير .

(٤) يجب أن يقف المعلم تلميذه على الأسباب التى من اجلها استحق العقوبة ، وأن يقوده بذلك إن استطاع إلى التسليم بأن العقوبة عادلة .

وجميع آراء شيشيرون فى هذا الموضوع قيمة ، وقد أخذ المربون يهتدون بهديها ويسترشدون بارشادها فى الأيام الحاضرة ، وله فى غير موضوع العقوبات آراء أخرى لها قيمة عالية فى التربية ، نذكر منها مايأتى : —

(١) يجب أن تبتدىء التربية من أول أدوار الطفولة ، وأن تستمر طول الحياة .

(٢) يجب أن تقوى الذاكرة بحفظ مختارات من مأثور الشعراء والكتاب

(٣) يجب أن تكون بيئة الطفل ووسائل لهوه بحيث تساعده على أن ينشأ عزيز النفس كريم الأخلاق تامى المدارك .

(٤) يجب أن يختار للطفل فى الوقت الملائم العمل الذى يوافق استعداده الذى ظهر فيه .

(٥) الدين أساس الاخلاق ، ولذا تجب العناية بتعليم الدين .

مصطفى امين
المتفانى بالمعارف